القسم الثالث

بدء المسألة الشرقية

- ١ -

بعد ان تم الاتصال مع الهند عن طريق البحر ، صار من الطبيعى ان تتناقص التجارة البريطانية مع اقطار الشرق • فقد كانت كلفة النقل البحرى للبضائع الهندية وللحرير الايرانى المستورد الى بريطانيا عن طريق الخليج الفارسى ، اكثر رخصا مما كانت عليه قبل فتح قناة السويس • ولذلك سهل اعادة تصدير تلك المواد وبيعها فى اسواق الشرق ، مزاحمة البضائع المستوردة اليها عن طريق العراق فسوريا • والواقع ان التجارة البريطانية كادت ان تتوقف فى مصر ، مما دعى الى الغاء القنصليات البريطانية فيها • كما أوكل أمر الاشراف على المصالح البريطانية فى سوريا الى العناصر الاجنبية الاخرى ولا سيما الايطاليين منهم • وقد جاء هذا الوضع فى صالح فرنسا التى كانت تتمشى تجارتها الشرقية مع مدى صداقتها الوطيدة لتركيا • فازدهرت تجارتها فى الشرق ازدهارا كبيرا •

فلما أدرك الانكليز أهمية الشرق بالنسبة لمصالحهم أخذوا يعنون بشؤونه ؛ وكان هدفهم الاول استخدامه كأقصر الطرق الى الهند • ولذلك حاولوا عام ١٦٩٨ فتح طريق برى تجارى يوصل تجارة البحر الاحمر عبر مصر الى البحر المتوسط • ولكن محاولتهم هذه فشلت لان الباب العالى رفض السماح للبواخر التابعة لدول مسيحية الابحار فى البحر الاحمر

لابعد من ميناء جدة • خشية نفوذ الاجانب الى المدن المقدسة ـ مكة والمدينة ـ القريبتين من ساحل البحر الاحمر • والحقيقة ان عوامل اقتصادية اخرى كانت الباعث لهذا المنع • فان ما كان يجبى من ضرائب فى جدة يضاف الى الخزينة التركية ، بينما تلك التى تجبى من الكمارك المصرية كانت تدخل الى جيوب المماليك • يضاف الى هذا ان الاهتمام بطريق البحر الاحمر سيقضى على الطريق البرى عبر العراق فسوريا •

ولقد كان المنع المذكور يتناقض والسماح الذى منح الى البواخر الانكليزية لزيارة جميع الموانىء العثمانية دون ان تجد ما يعيقها • وظل هذا المنع قائما حتى عام ١٧٧٦ عندما تغلب المملوك على بك على زملائه من المماليك وفرض استقلاله عن الباب العالى • ففتح ميناء السويس بوجه الاجانب وكتب الى حاكم البنغال مؤكدا الفوائد التى تجنى من الاتجار مع مصر • وعندما استلم الرسالة ورن هيستنج[1] بعث بهدايا كثيرة الى على بك واعدا ان سفنه ستبحر الى مصر فى العام التالى • غير ان ولاية على بك لم تدم طويلا فقد اغتصب الولاية منه زميل آخر • ومع ذلك فقد أكد المملوك المغتصب ، الدعوة السابقة الموجهة الى الهند بشأن التجارة البريطانية ، ووعد بخفض الرسوم الكمركية الى ٨ ٪ بدلا من تلك التى كانت تجبى فى جدة وقدرها ١٤ ٪ • على أن الحكومة البريطانية لم تنظر الى هذه الدعوة بتحمس خشية اغضاب الباب العالى ، وبالتالى الاساءة الى تجارة شركة شرق الهند[2] •

وكان جورج بولدون[3] اكثر المتحمسين للطريق عبر مصر • سيما بعد ان عين قنصلا بريطانيا فيها • فقد أسس طريقا لنقل البريد بين الهند

---

(١) Warren Hasting. (٢) East India Company. (٣) George Baldwin.

وبريطانيا عبر مصر • وكان البريد ينقل قبل هذا عبر حلب مارا بالخليج الفارسى • ومع ان نقل بريد الشركة كان يجرى بكفاءة عالية ، وباقصر مدة ممكنة ، فان الطريق الذى اوجده بولدوين قلل من الوقت اللازم لنقل البريد الى حد النصف أو الى ثلاثة أرباع ما كان يتطلبه سابقا • وقد اعترض الباب العالى على التدبير الجديد ، كما احتج بشدة على نقل البضائع بالطريق المصرى • وكانت ثمة أسباب اقتصادية دعت الى ذلك الاحتجاج ، والى جعل الباب العالى يشك فى نوايا بريطانيا ؛ مما اضطر حكومة لندن الى الغاء طريق البريد عبر مصر ، والى الغاء تجارتها مع هذا البلد والى استدعاء بولدون • وحدث ان نشبت فى ذلك الحين حرب بين بريطانيا وفرنسا فكانت فرصة لبولدون ان يبرهن على أهمية الطريق الذى اوجده لارسال انباء الحرب الى سلطات الهند بوقت مكن تلك السلطات من الاستيلاء على بوندشرى وعرقلة النشاط الفرنسى فى الهند ، قبل ان يتسنى للفرنسيين فى الهند معرفة اخبار الحرب مع بريطانيا • وقد قيل بعد ان وضعت الحرب أوزارها ، لو كان الطريق الجديد مفتوحا عندما عقدت الهدنة بين الطرفين المتحاربين ، لسلمت أرواح ما لا يقل عن ثمانين ضابطا بريطانيا ونيف وألفى جندى قتلوا بعد ان عقد الصلح بين فرنسا وبريطانيا •

وقد اثار النشاط البريطانى شك الفرنسيين • فان البريطانيين لم يكتفوا بتقليم أظافر الفرنسيين فى الهند ، بل أخذوا يثبتوا اقدامهم فى مصر • لقد كان الفرنسيون يحاولون منع البريطانيين فى عهد الملكة اليزابث من اقامة علاقات دبلوماسية مع ألباب العالى ، وهم الان يرون ضرورة عزل بريطانيا عن مصر • والواقع ان احتلال نابليون لمصر عام ١٧٩٨ لم يكن عملا اقتضته الظروف المفاجئة ، بل كان نتيجة تصميم وضعت اصوله قبل ثلاثين عاما من

وكانت السياسة الفرنسية فى مصر احدى مظاهر المسألة الشرقية التى بدأت بريطانيا تعنى بها فى القرن الثامن عشر • ويمكن تعريف المسألة الشرقية تعريفا كاملا بانهـــا معضلة املاء الفـراغ الحاصل نتيجة تقلص الامبراطورية العثمانية عن الحدود التى وصلت اليها فى أوج توسعها • وقد بدء هذا التقلص فى أواخر القرن السادس عشر نتيجة الضغط النمساوى • ومنذ نهاية القرن السابع عشر كان العامل الرئيسى فى المسألة الشرقية محاولة روسيا مضاعفة نفوذها على حساب تركيا ، أما عن طريق التوسع الاقليمى أو بالسيطرة على المضائق ــ البسفور والدردنيل ، أو بخلق حق لها للتدخل فى شؤون تركيا الداخلية •

وكان الحلف الفرنسى التركى الذى طالت مدته ، يهدف الى التفريق بين تركيا وبريطانيا • وزاد فى التباعد بين البلدين ان أهمية التجارة البريطانية مع روسيا جعلت الانكليز يعنون بتوطيد علاقتهم مع روسيا بدلا من تركيا • فقد أعلن شاتم[1] ان الصداقة البريطانية الروسية يجب ان تكون حجر الزاوية للسياسة الخارجية لبريطانيا • ولكن وليم بت[2] أخذ يشك فى نوايا الروس ؛ وكان محقا فى شكه ، لان السياسة التى اعلنتها الامبراطورة كاترين كانت تنطوى على اخراج الاتراك من القسطنطينية ، واعادة تأسيس الامبراطورية البيزنطية تحت تاج روسى • وبعد ان انتصرت روسيا على تركيا ــ والفضل فى ذلك يعود الى الضباط البريطانيين فى البحرية الروسية ، فرضت كاترين على تركيا عام ١٧٧٤ معاهدة كاينارجى • وبموجب هذه المعاهدة استطاعت روسيا استعادة نفوذها فى البحر الاسود ، كما اعطت

---

(١) Chatham. (٢) William Pitt.

نفسها حق التدخل فى الشؤون التركية الداخلية • وكما اضطر الباب العالى الى الموافقة على منح حق العبادة الى رعاياه من المسيحيين ، فانه كذلك اعطى وعدا باستعداده لتقبل أى طلب تتقدم به روسيا نيابة عن الاورثودوكس اليونان من المسيحيين •

وقد اثارت معاهدة كاينرجى خوف بريطانيا من مدى اتساع النفوذ الروسى فى تركيا • ومما زاد فى ذلك الخوف الهجوم غير المتوقع الذى قامت به روسيا على القرم بعد عقد تلك المعاهدة ببضع سنوات • وفاتحة تحول السياسة البريطانية عن روسيا ، اصدار الحكومة البريطانية أمرا يقضى بمنع جميع البحارة البريطانيين من الخدمة فى الاسطول الروسى • وكان وليم بت على استعداد لاعلان الحرب على روسيا ابقاء للتوازن الدولى • واذا ما كان فوكس من انصار روسيا فان بت كان يعتقد ان تركيا صديقة لبريطانيا• وقد اتفقت السياستان بعقد حلف بين بريطانيا وروسيا وتركيا ضد السياسة الفرنسية فى مصر •

وارسل البريطانيون اخبار فشل اسطول نابليون فى موقعة النيل الى الهند بواسطة رسول قام بالسفرة خلال سبعين يوما مقتفيا الطريق القديم عبر سوريا فالعراق ؛ ذلك الطريق الذى ظل متبعا حتى نهاية الحرب النابليونية • وقد لعبت الجيوش البريطانية دورا هاما فى القضاء على حركة نابليون لمنعه من بلوغ الهند • وكان ذلك عن طريق مساعدة الاتراك فى الدفاع عن عكا • فتغلبت الجيوش العثمانية على الفرنسيين الذين ارتدوا الى مصر ؛ واعقب ذلك عودة نابليون الى فرنسا • وبعد هذا حدث خلاف بين بريطانيا وتركيا سبب تصدع الحلف بينهما تصدعا لا مبرر له • فان الاسطول البريطانى حاول الدخول الى بحر مرمرة ولكنه اضطر الى

الانسحاب بعد ان علم بتحصين القسطنطينية تحصينا محكما بتحريض من الممثل الفرنسى فى تركيا •

وكانت محاولة احتلال مصر اعظم كارثة • ففى هذه الاثناء نظم محمد علي ، وهو ألبانى عين حاكما (باشا) لمصر قوة اعظم من قوة المماليك التى استطاع نابليون التغلب عليها • فصدت قوة محمد علي الجيوش البريطانية التى كانت تنوى احتلال مصر وأسرت عددا كبيرا من رجالها • وقد قام محمد علي باستعراض الاسرى البريطانيين فى القاهرة ثم أمر بقطع رؤوس اربعمائة أسير منهم فى قلعة القـــاهرة • وكان من بين الاســرى جندى اسكوتلاندى أسلم وتطوع بخدمة محمد علي واشترك بالحروب التى وقعت بين جيوش محمد علي والوهابيين فى جزيرة العرب • وكان أول من اخترق أسوار المدينة المنورة التى كانت بيد الوهابيين • وربما كان هذا الاسكوتلاندى هو عثمان الذى صادفه كنجليك فى القاهرة • فان عثمان هذا وان كان شرقيا بعدد حريمه فانه ظل اسكوتلانديا بكتبه ؛ فكثيرا ما كنت تسمعه يردد هذا الكتاب من ادنبرة وذاك من مكتبتها ــ وكل ما يحرص عليه من كتب من دار الكتب بادنبرة[1] •

- ٢ -

وقد حفز هجوم نابليون على مصر واعلانه عن نواياه بشأن الهند ، الحكومة البريطانية لاحتلال جزيرة بريم ، وهى جزيرة صغيرة فى مضيق عدن • ولردائة الاحوال الجوية فى تلك الجزيرة ولفقدان الماء العذب فيها ، اضطرت الجيوش البريطانية الى الانسحاب منها نحو مدينة عدن • وظلت

---

(١) Edinburgh Cabinet Library.

معسكرة فى هذه المدينة حتى زوال خطر نابليون عن الهند • وبالوقت ذاته تم عقد أولى تلك الاتفاقات التى اعطت بريطانيا وضعا خاصا فى الخليج الفارسى • ففى عام ١٧٩٣ ساند حاكم مسقط البريطانيين ضد الفرنسيين والهولنديين طوال مدة الحرب بين هذه الدول من اجل السيطرة على الخليج• وفى عام ١٨٠٠ تم عقد اتفاق خطى بين بريطانيا وحاكم مسقط ، خولت بريطانيا بحسبه تأسيس مركز لممثل سياسى بريطانى فى مسقط • وقد حاولت فرنسا تأسيس مثل هذا المركز للبعثة الفرنسية هناك ، ولكنها فشلت فى محاولتها • وتلاشى الخطر الفرنسى بعد ان تم احتلال البريطانيين لجزيرة موريشيوس واخراج فرنسا منهاعام ١٨١٠ •

وكان التعاون وثيقا بين بريطانيا وحاكم مسقط من اجل مكافحة القرصان الذين استفحل امرهم فاغتصبوا سفينة من سفن شركة شرق الهند • وكانت الشركة تظهر صبرا متزايدا ازاء اعتداءات القرصان كما كانت تعاقب بشدة كل من يتصدى للقرصان من قادة سفنها • وبعد ان استفحل امرهم اضطرت الشركة الى ان تقوم بعمل حاسم مع القرصان الذين كان اسيادهم الوهابيون يحرضونهم على اعمالهم تلك • فاستولى البحارة البريطانيون على مراكز القرصان ودمروها تدميرا كاملا • ومما يذكر بهذا الصدد ان البحث عن مخابىء القرصان تطور الى القيام بمسح شواطىء الخليج جميعها •

- ٣ -

واستطاع البريطانيون اقتلاع التأثير الفرنسى من العراق خلال الحرب النابليونية • ومنذ ذلك الحين اعطى المقيم البريطانى فى بغداد

وضعا خاصا كما اولته كل من الحكومة البريطانية وشركة شرق الهند أهمية خاصة • وقد تولى هذا المنصب عدد من الرجال البارزين نذكر منهم المستشرق كلوديوس جيمس ريش[1] والسر هنرى راولنسون[2] •

- ٤ -

وفى ايران كانت الظاهرة ذاتها التى ألفيناها فى تركيا تفعل فعلها • فالخطر من الفرنسيين آخذ فى التناقص ، والخطر من الروس آخذ بسرعة فى التزايد ، نتيجة ما اصاب قوة ايران من وهن وتفسخ • وقد بدأت العلاقات التجارية بين ايران وبريطانيا بعد ان احتلت بريطانيا جزيرة هورمز • واقيمت علاقات دبلوماسية بين البلدين بعد ان احتل الفرنسيون مصر وعين كابتن مالكولم ـ السر جون مالكولم[3] ـ ممثلا فيها لحكومة الهند • وقد توصل هذا الممثل الى عقد اتفاق مبدئى مع الحكومة الايرانية ، تقوم ايران بحسبه بمحافظة حدود الهند الشمالية الغربية ، وتقوم حكومة الهند بتقديم المساعدات اللازمة لايران فى حالة الاعتداء عليها • كذلك وافقت ايران على ان يلقى التجار البريطانيون مساعدات تجارية واسعة وان يخرج الرعايا الفرنسيون من ايران • وعندما ازداد الضغط الروسى المستمر على ايران ، توسلت بتلك الاتفاقية مطالبة مساعدة بريطانيا • فلما لم تجد المساعدة المرجوة ، ادارت وجهها نحو فرنسا ثانية • وكانت هذه فى حرب مع روسيا ، فعقدت معها معاهدة استهدفت فرنسا منها توسيع مطامع نابليون فى الهند • غير ان تلك المعاهدة ولدت ميتة ؛ ذلكم لان نابليون عقد معاهدة تلست[1] مع القيصر ، اعطت فرنسا بحسبها يدا مطلقة فى اوربا ، كما اطلقت يد

---

(١) Claudeus James Rich. (٢) Sir Henry Rawlinson.

(٣) Sir John Malcolm. (١) Treaty of Tilsit.

روسيا فى آسيا •

وقد ضعف مقام مالكولم فى ايران من جراء ايفاد مبعوث بريطانى آخر من بغداد ، هو السر هارفورد جونس[٢] لم يكن هذا ممثلا عن حكومة الهند بل كان يمثل الحكومة البريطانية مباشرة • ومن حسن الحظ ان الممثلين لم يختلفا فيما بينهما ، واستطاعا ان يظلا على وئام تام • ولا ريب ان التدخل البريطانى ساعد فى احلال السلام بين ايران وروسيا • وفى عام ١٨١٤ تم الاتفاق مع بريطانيا ، تمنع ايران بحسبه مرور الجيوش الاوربية الى الهند عبر بلادها ؛ والا تعقد ايران أى اتفاق يضر بالمصالح البريطانية • مقابل ذلك تتسلم ايران منحة سنوية قدرها ١٥٠٫٠٠٠ جنيها طالما لا تشترك فى حرب اعتدائية ، وتتعهد بريطانيا بالمحافظة على سلامة ايران من أى اعتداء خارجى •

- ٥ -

وظل الساسة البريطانيون منهمكين طوال عشرين عاما بسلسلة من الحوادث التى سببتها ثورة اليونان على الاتراك • فقد كانت بريطانيا تحرص كل الحرص لابقاء علاقتها حسنة بالباب العالى ؛ ولكنها بالوقت ذاته كانت مضطرة لان تراعى شعور الشعب البريطانى المتزايد والحاحه لمعاونة اليونان ـ فمن اجل قضية اليونان لاقى بايرون حتفه ـ ؛ كما اضطرت لمساعدة اليونان خشية ان تتبع روسيا سياسة مغايرة بالنسبة الى تركيا • وفى الاخير اضطر الاسطول البريطانى للانظمام الى الاسطول الفرنسى والاسطول الروسى لتحطيم اسطول تركيا ومصر فى موقعة نافارينو • واضطر محمد

---

(٢) Sir Harford Jones.

علي لسحب جيوشه من اليونان أثر تهديد الاسطول البريطانى لقصف الاسكندرية ، تلك الجيوش التى بدونها لن يتيسر للسلطان اخماد ثورة اليونان • وبضغط من الدول الاوربية على تركيا منحت اليونان استقلالها عام ١٨٣٢ •

وكان السلطان قد وعد محمد على بالحاق عدة ولايات له مقابل مساندة الجيوش المصرية الجيوش العثمانية فى حربها مع اليونان • وفى نهاية الحرب لم ينفذ السلطان وعده ، محتجا بأن حملة محمد علي على اليونان باءت بالفشل • واغضب هذا الموقف محمد علي فاعلن الحرب على السلطان وكادت جيوشه تحتل القسطنطينية فى ظرفين كان لهما اثرا كبيرا فى توجيه السياسة الاوربية بالنسبة لتركيا • ففى الظرف الاول تقدم القيصر مادا يده الى السلطان كصديق وحيد له بعد ان اخذت فرنسا بمساندة محمد علي وبعد ان تخلت بريطانيا عن السلطان خشية اغضاب فرنسا • وكان الاسطول البريطانى يومذاك راسيا فى الدردنيل وكان يهدف حماية القسطنطينية من خطر محمد علي • فاعتبر السلطان هذا الموقف من بريطانيا تهديدا له دعاه الى ان يسمح بأنزال الجيوش الروسية الى البسفور • ومقابل حماية روسيا للقسطنطينية وقعت تركيا عام ١٨٣٣ معاهدة انكير اسكليسى[1] التى أعطت روسيا ، تحت شعار التحالف العسكرى ، حق التدخل بالشؤون التركية ، حتى وان اقتضى هذا قوة السلاح • يضاف الى ذلك ان تلك المعاهدة كانت تتضمن مادة سرية ، افتضح أمرها بعد ذلك بقليل ، تقضى بانه فى حالة نشوب حرب بين روسيا ودولة اخرى فان من واجب تركيا كحليف لروسيا ان تغلق ابواب الدردنيل عندما تقضى الضرورة بذلك أو عندما تطلب روسيا

---

(١) Treaty of Unkiar Iskelessi.

اليها غلقها •

ولم يجد احتجاج كل من بريطانيا وفرنسا نفعا لفسخ تلك المعاهدة الجائرة ، ولكنها فسخت عندما وقع الخلاف ثانية بين السلطان ومحمد علي بعد ما ادركت بريطانيا ان فرنسا كانت تعاون محمد علي فى حملته • ولهذا كان لا بد لها من الاتفاق مع روسيا • وقد وقعت هاتان الدولتان على ميثاق لندن[1] بالاشتراك مع النمسا وبروسيا • أما فرنسا فانها لم توقع بادىء الامر على الميثاق ، ولكنها اضطرت لتوقيعه بعد ان شعرت انها بقيت وحدها خارج الميثاق • وبحسب مقتضيات ميثاق لندن اضطر محمد علي الى الانسحاب من سوريا نحو مصر وادى ذلك الانسحاب الى اضطراب الوضع فى سوريا من سوء ادارة حكامها المصريين • واقتصرت سلطة محمد علي على مصر وحدها ؛ وقد منحه السلطان لقب (باشا مصر) وجعل حكمه حكما وراثيا • ومما يذكر ان ميثاق لندن فسخ أهم النواحى التى كانت تشدد عليها معاهدة انكير اسكليسى • فحسب الميثاق الجديد ، لا يحق لاسطول اية دولة فى أيام السلم المرور من المضايق •

وقد استقرت السياسة الخارجية البريطانية التى كان يديرها يومذاك بالمرستون[2] على الاعتراف بحقوق تركيا الاقليمية ، وبضرورة مساعدتها للمحافظة على تلك الحقوق • وثمة اعتبارات عديدة حبذت الاستمرار على هذه السياسة منها الخوف من تداعى تركيا الذى سيؤدى الى اشعال نار حرب اوربية ، والمحافظة على خطوط المواصلات البريطانية مع الشرق ، وتزايد التجارة الانكليزية مع تركيا حيث وجد التجار البريطانيون وفرة فى مواد الخام كما وجد اصحاب المصانع البريطانية سوقا مربحة لمنتجاتهم •

---

(١) Convention of London. (٢) Palmerston.

وباخضاع محمد علي لسلطة السلطان ، استطاع الانكليز من الاستفادة من احكام معاهدة تجارية سبق ان عقدت مع تركيا عام ١٨٣٨ ، نفدت التجارة البريطانية بحسبها الى الاسواق المصرية • فقد قضت هذه المعـــاهدة على الاحتكارات التجارية ، واعطت الاجانب حق الاتجار فى مصر ، كما انها حددت التعريفة الكمركية على البضائع المستوردة بما لا يزيد على ٣½٪ من قيمتها • وكان من نتائج هذه الامتيازات ان قضت التجارة الاجنبية واكثرها بريطاني المنشأ على الصناعات الحكومية التى أسسها محمد علي لاجل تزويد جيشه بما يحتاج اليه من ملابس واجهزة ومعدات • وفى الوقت ذاته اغرقت الاسواق بالسلع الاستهلاكية • ويعتقد البعض من البحاث المصريين المعاصرين ، بانه لو كتب لتلك الصناعات البقاء والنمو ، لتطورت واصبحت مشاريع صناعية آلية مربحة تعطى مصر اقتصادا اكثر توازنا مما آل اليه الوضع فى عهد اسماعيل ؛ وربما نجت مصر من الازمة المالية التى أدت الى الاحتلال البريطانى • على انه مما يجب الا يغرب عن البال ان تلك الصناعات بما كانت عليه من وضع لم تكن اقتصادية بالمعنى الصحيح ، مع ان نظام السخرة كان مطبقا على عمالها كما كانت الضرائب الكمركية العالية تحميها من المزاحمة الاجنبية • وبالوقت ذاته يجب الا تنكر الجهود التى بذلها محمد علي من أجل تشجيع زراعة القطن فى مصر ، حيث المناخ والتربة صالحة كل الصلاح لزراعة الاصناف التجارية منه • واغلب ما كانت تنتجه مصر من قطن كان يصدر الى بريطانيا ، فساهمت فى تفوق لنكشاير بصناعة الانواع الجيدة من المنسوجات القطنية •

- ٦ -

وكادت محاولات روسيا للسيطرة على المضايق تنجح لولا الجهود الفعالة

التي بذلتها بريطانيا لانهاء مفعول معاهدة انكير اسكليسى • وكانت المحاولات الروسية والمقاومة البريطانية تترى الواحدة تلو الاخرى ، فاذا ما مال رقاص الحوادث ميلا شديدا نحو جهة ، كما حدث بعد حرب القرم ، سرعان ما اجتذبته قوى اخرى ليعود الى موضعه الطبيعى •

ويذهب البعض من الباحثين الى ان اسباب حرب القرم لم تكن ذات اهمية كبيرة ، بينما الواقع يدحض هذا المعتقد، فحرب القرم فى الحقيقة لم تكن من اجل حماية الاراضى المقدسة ، تلك الحماية التى بدء نابليون الثالث بالمطالبة بها ، عن طريق انتحال الادعاء القائل بان حقوق الروم الكاثوليك يسيطر عليها كهنة الاورثودكس اليونان ، وانما هى محاولة من قبل القيصر لتدعيم مطالبه ليكون حامى المسيحيين جميعا فى تركيا • وحاول القيصر شراء المقاومة البريطانية بالتلويح بمشروع يقضى باقتسام الاراضى التركية اذا ما حطمت الدولة التركية ، ولكنه لم يتلق جوابا مرضيا • ودام الاختلاف بوجهات النظر بين الاثنين حتى غزو الاراضى التركية من قبل الجيوش الروسية ؛ مما جعل تركيا تعلن الحرب على روسيا وتسارع بريطانيا وفرنسا الى مساعدتها •

وبعد اندحار روسيا تحسن وضع تركيا ، أثر عقد معاهدة باريس[1] عام ١٨٥٦ ، التى اعتبرت البحر الاسود منطقة محايدة • كما ان الدول الاوربية اتفقت فيما بينها على نبذ الحقوق التى كانت تتوسل بها ، للتدخل فى شؤون تركيا الداخلية ، مقابل اعلان السلطان حسن نواياه نحو المسيحيين من رعاياه • وبالوقت ذاته ، ان الاوضاع الخاصة التى منحت لبعض المقاطعات التركية والتى ادت الى استقلال كل من رومانيا وسربيا عجلت فى تداعى

(١) Treaty of Paris.

تركيا وانهيارها • واستعادت روسيا مقامها خلال الحرب الفرنسية البروسية عندما وافقت بروسيا على تحرر روسيا من معاهدة باريس ، تلك المعاهدة التى منعتها من انزال سفنها الحربية الى البحر الاسود بينما سمحت لتركيا ابقاء اسطولها فى بحر مرمرة • ولقد ثبتت معاهدة لندن المعقودة عام ١٨٧١ حق روسيا فى ابقاء اسطول لها فى البحر الاسود ، كما اجازت لتركيا ان تفتح المضايق للبوارج الحربية العائدة للدول الصديقة فى حالتى الحرب والسلم •

ومع ان الدول الاوربية اخذت على نفسها عهدا بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية لتركيا ، فانها ظلت تعنى فى اوضاع الاقليات العثمانية • ففى كريت حاولت الدول « الحرة » ـ بريطانيا وفرنسا ـ مساندة الحاكم التركى أزاء مطالب اليونانيين من سكان الجزيرة ، خشية ان يستفحل الخلاف فيؤدى الى حرب اوربية • ولكن هذه الدول لم تتردد من مساندة اقلية اخرى فى لبنان • فقد دعت المذابح المسيحية فى لبنان ودمشق الى ارسال بوارج حربية الى بيروت من قبل بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا ، وحتى من قبل دول صغيرة عديدة ، والى انزال قوة حربية ظاهرها دولى وحقيقتها افرنسى • وكانت نتيجة هذه المناورات ، منح لبنان الذى يؤلف المسيحيون اكثرية سكانه ، حكما ذاتياً يدير شؤونه حاكم عام عثمانى ، يتم انتخابه من بين الرعايا المسيحيين للباب العالى ، على ان توافق الدول العظمى عليه •

وكانت نهاية الاضطرابات فى بلغاريا نهاية محزنة ، فان الاتراك قاموا بقمع الثورة فى بلغاريا بعنف وبقسوة ، مما دعى الاوربيين الى ان ينعتوا عمل تركيا « بالفضائع البلغارية » • وكان الموقف الذى وقفته تركيا بالنسبة

للثورة البلغارية سببا لما حدث من انقسام عميق فى الدوائر السياسية البريطانية • فقد ظل گلادستون طوال اعوام اربعة محاولا القضاء على الدولة العثمانية ، بينما اتبع دزرائيلى السياسة التقليدية التى تدعوا لمساندة تركيا خشية ان يؤدى تداعيها الى اضطراب دولى ، وبالتالى الى اثاة حرب اوربية • أما الحكومة الروسية فكانت مجمعة كلمتها على مناهضة تركيا ، ولهذا اعلنت الحرب على تركيا عام ١٨٧٧ فاضطرتها بعد بضعة شهور لقبول معاهدة سان ستيفانو[١]؛ التى قضت بخلق دولة بلغارية واسعة الحدود ، تمتد من بحر ايجه الى البحر الاسود ، وتضم اقساما من مقدونيا التى كانت تطالب بها اليونان لاسباب عنصرية • ومما ساعد على ذلك ان تركيا سبق ان تلقت تحذيرا بأنها لن تلقى مساعدة من بريطانيا ؛ كما ان الدوائر المالية رفضت عقد قروض لتركيا ، اعتقادا منها ان دائرة الديون العمومية عاجزة عن دفع ما سيستحق بذمتها • كذلك ان الشعور البريطانى الموالى لبلغاريا كان من القوة بحيث جعل بريطانيا تبقى على الحياد ولا تساعد تركيا • ومع ذلك فان معاهدة سان ستيفانو اثارت التخوف من سيطرة روسيا على شرق اوربا وتهديدها للمواصلات الشرقية البريطانية • فأرسلت بريطانيا بعض قطعات اسطولها الى البسفور • وبطلب من بريطانيا عقدت الدول الاوربية مؤتمرا فى برلين يهدف منه اعادة النظر فى معاهدة سان ستيفانو •

وكانت معاهدة برلين[٢] اكثر ملائمة للمصالح التركية • وقد ادعى دزرائيلى فى ختام هذا المؤتمر انه اعاد الى تركيا سلاما مقرونا بالشرف ، وهذا ادعاء ملوث ، سرعان ما اكتشفت حقيقته • فقد عقد اتفاق سرى بين بريطانيا وتركيا خولت بريطانيا بحسبه احتلال قبرص ، وعليها

---

(١) Treaty of San Stefano. (٢) Treaty of Berlin.

مقابل ذلك ان تحافظ على ممتلكات السلطان فى اسيا من أى اعتداء • على ان يتعهد السلطان بالقيام باصلاحات رئيسية فى بلاده ، فاذا ما حققت تلك الاصلاحات ، واذا ما اعادت روسيا الى تركيا كلا من باطوم وقارس واردهان، عند ذاك ستعيد بريطانيا جزيرة قبرص الى الدولة العثمانية • وقد أدى ما اتخذ من تدابير لاحتلال قبرص الى اثارة مطاليب من قبل الدول الاخرى كتعويض لها • فقد طالبت فرنسا باطلاق يدها فى تونس ، كما لوحت ايطاليا بمطامعها فى كل من البانيا وطرابلس الغرب • وكانت المانيا الدولة الوحيدة التى حافظت على صداقتها لتركيا فلم تطالب بشىء •

- ٧ -

وقد توقفت بريطانيا عن دفع المنحة المالية التى وعدت بدفعها الى ايران حسب اتفاق عام ١٨١٤ ، عندما اعلنت الحرب بين روسيا وايران عام ١٨٢٥، وكانت ايران هى المعتدية فى هذه المرة • ولكن بريطانيا بذلت كل ما تستطيعه من جهود لاحلال السلام بين الطرفين المتنازعين • وتكللت جهودها بعقد معاهدة تركمان جاى[1] عام ١٨٢٧ • وكانت هذه المعاهدة ذات منافع عامة ؛ ذلك لان الامتيازات التى منحتها ايران الى روسيا بحسب تلك المعاهدة تمتعت بها بريطانيا وغيرها من الدول تنفيذا لقاعدة المساواة مع الدول ذات الحظوة •

وكان ممثل بريطانيا فى ايران يومذاك السر جون ماكدونلد من رجال الدائرة السياسية الهندية ، وقد لعب ممثل بريطانيا دورا فعالا فى احلال السلم بين الشعبين المتنازعين ؛ وعندما اصر الايرانيون على اعلان الحرب على الروس فانه اوعز الى الضباط البريطانيين المستخدمين فى الجيش الايرانى بعدم الاشتراك فى الحرب القائمة بين الطرفين ، كما بذل جهودا جبارة

Treaty of Turkman Chea.

لجعل الحكومة الايرانية تحسن معاملتها للاسرى من الروس • وعند بدء مفاوضات السلم قام بدور الوسيط بين الطرفين محاولا التخفيف من اصرار الايرانيين وعنادهم ، والتلطيف من حدة الشروط التى اشترطها الروس تعويضا لهم لما اصابهم من اضرار • وبطلب من الروس وافق على استلامه اقساط تلك التعويضات نيابة عنهم • كذلك لعب ماكدونلد دورا هاما بعد مقتل المبعوث الروسى من قبل غوغاء طهران ، الكاتب المسرحى غريبويدوف[1]، فقد تعهد بالمحافظة على المصالح الروسية كما سعى لاقناع الايرانيين بجسامة الجريمة المرتكبة • ولما بذل من جهود نال شكر كل من الطرفين ـ القيصر والشاه •

واخيرا استطاعت ايران التخلص من الضغط الروسى بعد ان اشتبكت روسيا مع الاتراك ، ذلك الاشتباك الذى جعل القيصر يطلب معاونة ايران بدلا من محاولة سحقها • حتى صارت السياسة الروسية نحو ايران ، انماء الصداقة بين البلدين خلال الخمسة والعشرين سنة التالية ، مما جعل ايران تقوم بمساندة الخطط التى كانت روسيا تتبعها نحو افغانستان وتركستان والتى ادت الى اعلان الحرب الانكليزية الايرانية بين عامى ١٨٥٦ ـ ١٨٥٧ • فقد وقعت حادثتان الاولى فى عام ١٨٣٨ والاخرى فى عام ١٨٥٦ ، اضطرت بريطانيا فيهما لحماية افغانستان من الاعتداءات الايرانية • ففى عام ١٨٣٨ اضطرت الحكومة البريطانية الى التدخل بشؤون ايران الداخلية والضغط على الشاه من اجل رفع الحصار عن مدينة هرات ، التى دافعت عنها حامية بقيادة ضابط بريطانى باسل هو الدريد بوتنجر[2] • وفى عام ١٨٥٦ اضطرت بريطانيا لاحتلال جزيرة خارج والقيام بمناورات عسكرية فى نهر

---

(١) Griboyedov. (٢) Eldred Pottinger.

كارون تهديدا لايران ، ولاضطرارها للمحافظة على الوضع الراهن • وفى كلتى الحادثتين لم تتقدم ايران بأى مطلب تعويضى الى الحكومة البريطانية •

وقد سعت الحكومة البريطانية للقضاء على أحد اسباب الاضطراب فى الشرق الاوسط بقيامها بتثبيت الحدود الايرانية التى كانت مصدر خلاف دائم بينها وبين جيرانها فى الغرب والشرق • فقد دعت معاهدة ارضروم[1] المنعقدة بين تركيا وايران عام ١٨٤٧ الى تأليف لجنة مشتركة تكفل بنفقاتها كل من بريطانيا وروسيا قامت بتثبيت الحدود بين الدولتين • ومما قررته اللجنة ان الحدود التركية الايرانية تقع فى منطقة تتراوح عرضها بين عشرين واربعين ميلا • أما فى الجهة الشرقية فقد حددت الحدود عام ١٨٧٢ ، من قبل حكم بريطانى ، وايد ذلك التحديد وزير الخارجية البريطانى • وقد وافقت كل من ايران وافغانستان على الحدود المقترحة •

وفى عام ١٨٧٢ بلغ اعتماد ايران على البريطانيين وثقتها بهم ذروته ، عندما منح الشاه رجلا بريطانيا هو البارون دى روتر[2] اغرب ما منح من امتياز فى العالم • فقد منح هذا البريطانى حق احتكار مد الخطوط الحديدية، وخطوط الترام فى جميع ايران ، وحق البحث عن المناجم عدا مناجم الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، وحق اقامة مشاريع الرى ، ومد الطرق وتأسيس المصانع وخطوط التلغراف وحق جمع العوائد الكمركية ، لمدة لا تتجاوز خمسة وعشرين عاما • وكانت المدة المحدودة لهذا الامتياز الغريب سبعين عاما • ولم تكترث الحكومة البريطانية بهذا التدبير غير المعقول ، لانها كانت مطمئنة من ان امتيازات كهذا لن يدوم حتى وان لم تقاومه روسيا • ولم يمض طويل وقت حتى الغى الشاه الامتياز بحجة ان مقدار العمل الذى قام به صاحب

---

(١) Treaty of Erzerum. (٢) Baron de Reuter.

الامتياز لمد الخط الحديدى من شمال ايران الى جنوبها لم يكن متناسبا مع المدة المقررة له • ولا ريب ان اللورد كرزن احسن تقدير الوضع عندما كتب « ما دام الهدف للسياسة البريطانية كان دعم ايران وتقويتها فاننا نستطيع ان نهنىء انفسنا عندما شاهدنا المشروع الذى أوشك ان يشل حيوية مملكة ، يتحطم ويتداعى » •

وعندما تقدمت ايران بطلبها الى بريطانيا ، لان تقوم باعادة تنظيم الجيش الايرانى ، رفضت بريطانيا الطلب • مما اضطر ايران الى استخدام بعثة نمساوية لتقوم بهذا الغرض • وبالوقت ذاته بدء الروس بتأليف لواء عسكرى عرف بالقوزاق ، على الا يكون هذا اللواء جزءا من الجيش الايرانى •

وقد بقى الخلاف الذى بدأ فى أوائل القرن التاسع عشر بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند بشأن أى الحكومتين تتولى مسؤولية العلاقات الدبلوماسية فى ايران ، قائما مدة نصف قرن واخيرا امكن التغلب على المصاعب الناجمة عن وجود مالكولم ممثلا لحكومة الهند ، وهاردفورد جونس ممثلا للحكومة البريطانية بتعيين السر غور أوسيلى مبعوثا وحيدا فى ايران • ولكن المعضلة ظلت قائمة حتى عام ١٨٦٠ ، عندما اتفق على ان تكون العلاقات الدبلوماسية من اختصاص وزارة الخارجية البريطانية وان حكومة الهند تتعهد بتكاليف مقتضيات البعثة الدبلوماسية فى ايران ؛ واستمر هذا الوضع حتى استقلال الهند • وكان لحكومة الهند يومذاك صوت مسموع فى جميع القضايا المتعلقة بالسياسة البريطانية فى ايران • يضاف الى ما تقدم ان القنصليات البريطانية فى شرق ايران وجنوبها كان يعين لها موظفون من منتسبى الدائرة السياسية الهندية ، اسوة بمن كان يعين فى مدن الخليج الفارسى وبالقنصلية العامة فى بغداد من موظفين وقناصل •

وكان الفشل نصيب الرحلة البحرية الاولى من انكلترا الى الهند عام ١٨٢٧ • ولكن سرعان ما تم تنظيم سفرات بحرية اخرى من الهند حتى السويس باخرة بنيت فى بومبى وركبت لها ماكنة انكليزية • وكانت تلك السفرات سببا فى تنظيم نقل بحرى منظم من انكلترا الى مصر ومن مصر الى الهند • وكان هذا الطريق يتطلب مسلكا بريا امينا عبر مصر ، ولذلك انتدب الكابتن شزنى[1] لدراسة المعضلة فى موقعها • فاقترح فتح قناة بين البحرين المتوسط والاحمر سيما وانه لم يكن ثمة تفاوت بين مستويات سطحى البحرين المذكورين ؛ ومع ذلك فانه كان ميالا الى الاعتقاد بافضلية الطريق المباشر عبر سوريا والعراق • لذا استحصل موافقة لندن للقيام بدراسة امكانيات الطريق المباشر • فارسلت له اجزاء باخرتين صغيرتين قام بنقلها الى الفرات ، ونصب الباخرتين فى النهر وكان مصير احدى السفينتين الضياع اثناء عاصفة هوجاء • أما الثانية فقد بلغت البصرة سالمة بعد مصاعب كثيرة اثبتت عدم صلاح نهر الفرات لمخر البواخر • كذلك اجريت دراسة واسعة عن الانهر الثلاثة الفرات ودجلة وكارون وجمعت معلومات قيمة وافية عن هذه الانهر الثلاثة • ومن حسن الصدف ان وجود البواخر البريطانية فى العراق عام ١٨٤٠ دعى الى توقف الجيوش المصرية فى حربها مع السلطان ، سيما وانها اهتمت اهتماما كبيرا بالتحذير الذى ابداه بالمرستون لمحمد علي ، بأن أى تقدم تقوم به جيوشه نحو بغداد أو الخليج لن ترضى عنه الحكومة البريطانية •

وكان من نتائج رحلة شزنى فى الفرات ان حصلت بريطانيا على امتياز

---

(١) Captain Chesney. R.A.

الملاحة فى دجلة • ومن بين الذين قاموا بالرحلة الاولى فى هذا النهر اخوان لنج وهم ثلاثة احدهم غرق فى النهر ، والاخر توفى بمرض ، والثالث سلم ليؤسس شركة نقل نهرى استطاعت أول الامر ممارسة عملها بحكم الفرمان الذى منحه السلطان للذين قاموا برحلة الفرات •

ولم يتلاش الامل باستخدام الطريق السورى العـــراقى الا فى عام ١٨٦٠ • عندما حصلت احدى الشركات البريطانية على امتياز من السلطان بمد خط حديدى على ان تدفع الحكومة التركية عوائد للشركة بنسبة ٦ ٪ مما تصرفه من مبالغ لمد القسم الاول من الخط • غير ان مجلس العموم البريطانى رفض ان يكفل هذا التعهد • فاضطرت الشركة الى رفض ذلك الامتياز • ويحلو لنا ان نقف هنا لنتأمل فى الوجهة التى ستتجهها المسألة الشرقية لو ان خطا حديديا بريطانيا مد عبر سوريا الى البصرة قبل عشرين عاما عندما بدأت المانيا سياسة الاتجاه نحو الشرق •

ولا ريب ان الاصلاحات التى ادخلت على الملاحة البحرية والجهود التى بذلتها البحرية الهندية ، التى سميت بعد ذلك « البحرية الهندية الملكية » سهلت فى عام ١٨٣٠ أمر تنظيم السفر البحرى بين بومبى والسويس • كما ان تزايد عدد المسافرين وسلامة نقل البريد دعت الى تأسيس دائرة للنقل البرى فى مصر مهمتها نقل المسافرين والبريد من الاسكندرية الى القاهرة عن طريق النهر كما تنقلهم من القاهرة الى السويس على الجمال بطريق صحراوى يمتد ثمانين ميلا • وقد اقامت محلات للراحة فى هذا الطريق مزودة بالمؤن والماء • وكان فى مقدمة المتحمسين لهذا المشـــروع توماس ويجهورن • وقبل تنظيم الطريق الصحراوى هذا كان المسافرون يضطرون الى التزود باشياء كثيرة تزيد من متاعبهم فى سفرهم الطويل • وفيما اوصى

به احد المسافرين ضرورة التزود بالماء العذب للطبخ ، وبالحليب وحتى بالمهد للاطفال ، لامكان نقلهم على ظهور الابل •

وتأسست شركات بريطانية لانماء المواصلات التلغرافية بين الهنـــد وبلدان الشرق الاوسط وكانت كل من حكومة الهند والحكومة البريطانية تساعد تلك الشركات فيما قامت به من خدمات • ففى ايران بدأت شركة التلغراف الهندية الاوربية بالاتصال التلغرافى منذ عام ١٨٧٠ وفى تركيا قامت بهذا العمل شركة التلغراف الشرقية •

وقد أدت شكوك بالمرستون بنوايا فرنسا ، بالنسبة لمصر ، الى مقاومة مشروع الخط الحديدى المقترح من قبل محمد علي اعتقادا منه ان محمدعلي كان واقعا تحت التأثير الفرنسى • ولكنه اضطر اخيرا الى تشجيع مشروع آخر هو انشاء خط حديدى من الاسكندرية الى السويس لكى يميت فكرة الفرنسيين لفتح القنال ؛ وكمل مد هذا الخط عام ١٨٥٨ • لقد عرفت مصر فتح الاقنية منذ اقدم العصور ولكن جميع تلك الاقنية كانت بين النيل والبحر الاحمر • وكان نابليون أول من فكر فى بناء قنال بين البحر الاحمر والبحر المتوسط • غير ان الاخطاء التى وقع بها مهندسوه بشأن التفاوت فى ارتفاع مياه كل من البحرين ، أجل تحقيق المشروع حتى ايام دوليسبس[1] ؛ مع انه سبق لشنزنى ان قدم تقريرا نفى فيه التفاوت فى ارتفاع مستويات مياه كلى البحرين ، ومع ذلك لم يؤخذ بهذا التقرير •

ومنذ البداية لقى مشروع القنال اهتماما كبيرا من قبل البريطانيين • فكان كل من مجلس الهند[2] وشركة البواخر للشرق ولشبه الجزيرة[3]

---

(١) Delesseps. (٢) India Board.

(٣) Peninsula and Oriental Steamship Company.

من المناصرين لهذا المشروع الهام • غير ان مناوئة بالمرستون لهذا المشروع لم يكن من السهل مقاومتها • ومما يجب الا يغرب عن البال ان بالمرستون اضطر للوقوف ذلك الموقف لان الفرنسيين كانوا يقصدون من وراء مشروعهم الاضرار بالمصالح البريطانية • وكان تحمس المساهمين الفرنسيين كبيرا جدا سيان لديهم المساهمة فى مشروع خط حديدى فى السويد أو فى القنال ما دام المشروع « يضر بالمصالح البريطانية » •

وتم انشاء القنال مع جميع ما اعتراه من مصاعب فنية ومالية وسياسية • وكان يعزى هذا النصر الى مثابرة مهندسه الفرنسى دوليسبس ، والى المعاونة التى لقيها من سعيد باشا ، الذى ولى الحكم بعد محمد علي والذى تحدى منع السلطان تحقيق هذا المشروع ، فيسر العمال والجزء الاعظم من المال اللازم للمشروع • وما ان تم فتح القنال ، حتى اسرعت بريطانيا الى دفع منحة مالية مغرية الى دوليسبس • واقرارا بالفضل البريطانى أقام دوليسبس تمثالا لويجهورن الذى اعتبر أهم رواد الطـــريق البرى عبر مصر • كذلك احتلت السفن البريطانية المقام الاول فى استخدام القنال ، وهذا ما جعل اصحاب السفن والتجار يتذمرون من ارتفاع اجور عبور السفن من القنال • على ان قيام دزرائيلى بشراء الاسهم العائدة الى الخديوى سرا لم يجد نفعا ، لأنه لم يعط بريطانيا عددا من الاصوات مناسبة فى ادارة القنال • وسبب ذلك ان قانون شركة قنال السويس اعطى صوتا واحدا لكل مساهم يحمل خمسة وعشرين سهما من اسهم الشركة على الا يزيد عدد الاصوات للمساهم الواحد عن عشرة اصوات مهما بلغ عدد سهامه • ومعنى هذا ان مساهما يحمل ٢٥٠ سهما يستطيع ان يصوت بقدر اصوات بريطانيا التى تحمل ثلثمائة وخمسين ألف سهم من سهام الشركة • ومع ان مصالح

اصحاب السفن البريطانية مثلت تمثيلا واسعا فى مجلس ادارة الشركة ، الا ان الادارة بقيت ولا زالت باقية بيد الفرنسيين •

- ٩ -

كانت الاصوات البريطانية تتعالى بين حين وآخر منادية باحتلال مصر • ضمانا لسلامة خطوط المواصلات البريطانية مع الشرق • ومما زاد فى شدة تلك الاصوات خشية الانكليز ان يحتل الفرنسيون مصر فيقون فى حيرة من أمرهم ، سيما وكان الفرنسيون يجهرون بنواياهم فى صحفهم • فلما اقترح نابليون الثالث تقسيم شمال افريقيا بين بريطانيا وفرنسا ؛ تحتل بريطانيا مصر ، وتحتل فرنسا مراكش وساردينيا وتونس ، رفض بالمرستون هذا الاقتراح • ولم يكن احتلال البريطانيين لمصر أمرا مصمما تصميما دقيقا ، وانما كان نتيجة حتمية لسلسلة من الحوادث اضطرت بريطانيا فى بادىء أمرها الى مسايرة فرنسا فى سياستها فلما تبدلت الحكومة الفرنسية يومذاك لم تجد بريطانيا بدا من أن تكمل العمل وحدها • وكانت أولى الحوادث التى سببت احتلال مصر افلاس اسماعيل الذى اصبح باشا مصر عام ١٨٦١ واشترى لقب خديوى من السلطان • ويعذر البعض من الباحثين اسماعيل فيما قام به من اعمال اوصلت مصر الى ما وصلت اليه من اغراق فى الديون وتدن فى اوضاعها العامة • لانه كان يهدف باعماله انماء بعض المشاريع النافعة ، كأكماله قنال السويس وانشاء ميناء الاسكندرية • ومما يلام عليه اسماعيل انه شجع الكثير من المشاريع قبل ان يمعن النظر بمدى صلاحها ؛ وقابلية الناس لتحمل اعبائها • كالتوسع الاقليمى الذى كان ينشده ، وبنائه دار الاوبرا المصرية واثارته حربا لا

طائل لها مع الحبشة • وكانت الديون التى فى ذمة مصر يوم اعتلى عرشها اسماعيل ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيها فبلغت بعد خمس عشر عاما اربعة وتسعين مليون جنيه • ويضاف الى ذلك اخضاع الفلاحين الذين يؤلفون اكثرية الشعب الساحقة لاعمال السخرة وللتجنيد الاجبـــارى وللضرائب المرهقة • وكان حكام الاقاليم ورؤساء القرى يستعملون القسوة المتناهية والتحزب المقيت فى معاملاتهم للفلاحين وللقرويين •

وتمثل الديون المصرية القروض الاجنبية التى اقترضتها حكومة مصر بفائدة عالية وبخصم عالى النسب ايضا • وقد اضطرت الحكومة البريطانية التزام جانب الدائنين البريطانيين ، الذين يأتون فى المرتبة الثانية ، بالنسبة لعظم المقادير التى اقرضوها لحكومة مصر • وبغير ذلك يتعذر عليهم جباية الاقساط المستحقة لهم باجدى الاســـاليب التى يمكن اتباعها • ولم يكن تأثير حاملى سندات القروض هو العامل الوحيد الذى دعى للتدخل فى شؤون مصر الداخلية ، مع انه كان عاملا كبير الاهمية ، ولكن ما اصاب الكيان الادارى من تصدع ، وهو النقطة الحساسة فى الكيان المصرى ، كان سببا اساسيا للتدخل ، خشية ان يؤدى الوضع الراهن الى تعقيدات دولية خطرة للغاية • فالمانيا التى لم تكن لرعاياها مصالح مالية كبيرة كانت تتصيد فى تلك المياه العكرة •

وحاولت الدول المعنية بالامر اخضاع اسماعيل باشا الى سيطرتها بشتى السبل • فقد حتمت عليه احداث ديوان خاص للديون العمومية وبذلك اوجدت سلطة دولية تشرف على مالية مصر • ثم ايجاد نظام يسمح لفرنسا ولبريطانيا السيطرة على شؤون مصر ، واخيرا تأليف وزارة دستورية فى عام ١٨٧٨ عين فيها وزير للمالية بريطانى الجنسية ووزير للاشغال العامة

فرنسيا • ولا ريب ان اسماعيل كان شديد التبرم بالسيطرة التى فرضتها الوزارة على اعماله ، فمما يظن انه كان متواطئا مع الثائرين العسكريين الذين أصروا على عزل تلك الوزارة • الامر الذى جعل السلطان يضطر للتخلى عن العرش الى ابنه توفيق • وكان السلطان مدفوعا بتحريض من قبل الانكليز والفرنسيين • وجابه توفيق فى أول امره شعورا عاما يطالب بالاصلاح ، تطور الى حدوث حركة فى الجيش المصرى بقيادة ضابط مصرى من أصل ريفى ، هو احمد عرابى الذى تولى وزارة الحربية ، فسيطر على الوزارات الباقية حتى اصبح الدكتاتور الفعلى لمصر • ومن أهم ما قام به عرابى انه عالج شكاوى الجيش وقضى عليها كما اضطر الخديوى منح البلاد دستورا على غرار الدساتير الاوربية • وقد طالب الخديوى السلطان بمساعدته ولكن تدخل السلطان الذى كان يؤيده الانكليز دون الفرنسيين جاء بعكس ما كان يتوقع منه •

وكانت فرنسا تساند الخديوى بسلطته لان رئيس وزرائها غمبتا[1] ، لم يكن مرتاحا الى الاوضاع القائمة فى مصر ، وكذلك من المصاعب التى كان يلقاها الفرنسيون فى تونس • ولهذا لم يتورع فى اتخاذ شتى الوسائل لمساندة الخديوى ، ولمناصرة حاملى سندات القرض المصرى من الفرنسيين • ولما كانت بريطانيا تخشى ان تبقى فرنسا وحدها فى الميدان ، فتحتل مصر ثانية ، كما كانت فى ريبة من حركة عرابى ، تلك الحركة التى فشل الانكليز فى ادراكهم حقيقة الشعور الوطنى المصرى المتجلى فيها ، لذلك ساهمت الحكومة البريطانية مع الحكومة الفرنسية فى تقديم مذكرة شديدة اللهجة فى كانون الثانى من عام ١٨٨٤ يساندون فيها سلطة الخديوى ؛

---

(١) Gambetta.

فأثاروا بعملهم هذا خوف المصريين من ان الدولتين عازمتان على احتلال مصر •

فلما حدث تغيير فى السياسة الفرنسية بعد استقالة غمبتا ، انسحب الاسطول الفرنسى الراسى مع الاسطول البريطانى فى ميناء الاسكندرية • وقد تم انسحابه قبل قيام الاسطول البريطانى بقصف الاسكندرية فى اليوم الحادى عشر من شهر تموز من عام ١٨٨٢ • وكان السبب المباشر للقصف مذبحة المسيحيين فى مصر ، والاعتداء على الاجانب فى الاسكندرية ؛ ذلك الاعتداء الذى أيد اعتقاد الحكومة البريطانية بأن حركة عرابى كانت حركة تعصب ضد الاجانب • وثمة عامل آخر هو رفض المصريين التوقف عن العمل فى الحصون التى كانت تنشأ من أجل حماية البلاد من الاسطول البريطانى• وقد اعقب قصف الاسكندرية واحتلالها اندحار جيش عرابى أمام الجيش البريطانى فى معركة التل الكبير ، ذلك الاندحار الذى كان يكفى لتحقيقه نداء من السلطان ضد حركة عرابى • وكان الخديوى يرغب باعدام عرابى، لكنه بنتيجة نصح اللورد دوفرين[1] الذى تأثر باصدقاء عرابى من الانكليز ، استبدل حكم الموت على عرابى بالنفى الى جزيرة سيلان • وبقى عرابى منفيا حتى عام ١٩٠١ عندما سمح له بالعودة الى مصر •

ويعزى احتلال مصر من قبل البريطانيين الى تخوف حملة سندات القروض المصرية من ضياع مصالحهم ، والى قصر نظر الضباط البريطانيين الموجودين فى مصر ، والى اصرار اميرال الاسطول البريطانى وعناده • ولا ريب انه كان فى امكان الحكومة البريطانية ، مع وجود تلك العوامل ، التأمين على المصالح الانكليزية دون الاحتلال • واذا كان لا مفر من القيام من احتلال

---

(١) Lord Dufferin.

مصر فكان الاجدر ان تشترك فرنسا وايطاليا فى ذلك العمل ايضا • وكم كان يسر الانكليز الا ينفردوا بالعمل الذى قاموا به وحدهم • ولكن ما ان تم احتلال مصر حتى ظهرت عوامل اخرى كانت تبرر ذلك الاحتلال •

- ١٠ -

وكان اثر توسع النفوذ المصرى فى بلاد العرب بعد ما دحر ابراهيم باشا الوهابيين واتجاهه نحو اليمن ، ان سارعت بريطانيا الى احتلال عدن ، مع ان اهميتها كميناء وكمحطة للفحم فى طريق الهند ، كانت تدعو الى احتلالها عاجلا أو آجلا • الا ان السبب المباشر لاحتلالها هو اعتداء سكانها على سفينة هندية يعلوها العلم البريطانى ؛ وكان سلطان لحج مسؤولا الى حد كبير عن ذلك الاعتداء • يضاف الى ذلك انه رفض بيع عدن الى الانكليز وانه تآمر لالقاء القبض على مفاوضيه البريطانيين الامر الذى سبب الاسراع باحتلال الميناء فى عام ١٨٣٠ • وقد اضطر السلطان فى نهاية الامر الى الاعتراف باحتلال عدن مقابل منحة مالية سنوية • كذلك تم احتلال جزيرة بريم ثانية عام ١٨٥٧ عندما كان يناقش مشروع قنال السويس • وانشئت فيها منارة بحرية ومحطة تلغراف • ومن ثم اخذ النفوذ البريطانى يمتد نحو الشرق من عدن ، أى نحو مقلة والشحر ، واقيمت محمية من هـــاتين المقاطعتين • وقد سبق ان احتلت جزيرة سقطرة ثم هجرت ولكنها صارت موضع اهتمام البريطانيين ثانية عندما بدء الالمان فى توسعاتهم الاقليمية • فبحسب معاهدة عام ١٨٧٦ سمح لبريطانيا بالاستفادة من تلك الجزيرة وبعد عشرة اعوام ضمت الى الحماية البريطانية •

وأدى الصراع من اجل القضاء على القرصنة فى الخليج الفارسى ، الى عقد معاهدة سلام فى عام ١٨٢٠ بين حكومة الهند ، وبين مجموعة الامارات العربية الصغيرة • وكان اغلب تلك الامارات واقع فيما يسمى بعمان المهادنة[١] أو بالساحل المهادن[٢] • وقضت تلك المعاهدة ، بالاشتراك مع مشروع اقامة حرس بريطانى بحرى ، على القرصنة فى الخليج الفارسى بالنسبة الى السفن الاجنبية على الاقل • وكانت احدى مواد المعاهدة تستهدف القضاء على تجارة الرقيق ؛ تلك التجارة التى اعتبرها القانون الانكليزى لعام ١٨١١ من الجرائم العظمى • وقد اعتبر القضاء على تجارة الرقيق من أهم اهداف السياسة البريطانية فى الخليج الفارسى وفى البحر الاحمر طوال القرن التاسع عشر • ونص على التدابير المتخذة لمنع تلك التجارة فى المعاهدة المعقودة مع مسقط والبحرين • (وفى عام ١٨٥٨ أدى التدخل بتجارة الرقيق الى حدوث ثورة فى جدة انتهت بمقتل عضوين من اعضاء السلك القنصلى الاجنبى) • والحقيقة ان شيوخ الخليج اذا ما كانوا مضطرين لترك تجارة الرقيق ونبذ القرصنة فانهم استفادوا من السلام الذى حل بينهم ، وكان المقيم البريطانى فى بوشهر يفرض عليهم السلام ويراقب تصرفاتهم بالنسبة لبعضهم البعض • فقد كان لذلك القنصل ، وان كان ضابطا قنصلا بالنسبة الى ايران ، نفوذ كبير على العرب فى الجهة الثانية من الخليج

وقد تكاملت المرحلة النهائية للعلاقات البريطانية مع شيوخ الخليج عندما وقعوا بفترات متفاوتة على تعهدات تلزمهم بالا يقوموا بأى توسع اقليمى

---

(١) Trucial Aman.

(٢) Trucial Coast.

فى بلادهم ، والا يدخلوا بأى اتفاق مع أية حكومة عدا الحكومة البريطانية ، والا يسمحوا باقامة ممثل دولة اجنبية فى بلادهم عدا ممثل بريطانيا الا بعد موافقة بريطانيا على ذلك • وقد نالت البحرين أهمية خاصة من لدن بريطانيا ، عندما قام الايرانيون الذين أخرجهم العرب من الجزيرة عام ١٨٧٢ ، يطالبون بعودتهم اليها ، وعندما اخذ الاتراك يطالبون بحقوقهم بتلك الجزيرة • وتفاديا لما يحدث من اخطار وقع الشيخ اتفاقا ، يضع الجـــزيرة تحت الحماية البريطانية ، واعدا بالا يقوم بأى حرب وان ينبذ القرصنة وتجارة الرقيق ، ومعترفا بأحقية القوانين البريطانية على الرعايـا البريطانيين فى الجزيرة • وقد قدمت بريطانيا مساعداتها الى البحرين فى عام ١٨٧١ عندما اظهر الاتراك بعد احتلالهم الاحساء رغبتهم فى الاستيلاء على المشايخ العربية ومن بينها البحرين •